

الحلقة الحادية عشرة

يعقوب يشم رائحة يوسف من مسافة ألف ميل

يعود إليه بصره

أبناءؤه يطلبون منه أن يستغفر لهم

آل يعقوب جميعاً فى مصر

يوسف يرفع أبويه على عرش مصر

تفسير رؤيا يوسف القديمة

بسجود أبويه وإخوته له

يشكر ربه ويتضرع إليه

الآيات القرآنية التي صيغ منها شعر الحلقة الحادية عشرة

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ (٩٤) قَالُوا
تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ (٩٩) وَرَفَعَ
أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ
قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ
وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١)

أشعار الحلقة الحادية عشرة

- ١ هذا هو الصديقُ يوصي الإخوة المتسمعين
- ٢ أن يذهبوا بقميصه لأبيه ، كانوا طائعين
- ٣ سمعوا وصيته وعادوا بالقميص مسارعين
- ٤ وقلوبهم ملاءى بفرح ، لم يعودوا خائنين
- ٥ يعقوبُ لا ينفكُ مع أحزانه لا يستكين
- ٦ لم ينسَ يوسفَ أو أخاه ، وإنه باك حزين
- ٧ أبناء يعقوبُ تولوا بالاماني عائدين
- ٨ وهناك يعقوبُ يعيشُ مع البكاء مع الأنين
- ٩ ريحُ الحبيب تحيته من ألف ميلٍ كاملين
- ١٠ جاءته يحملها النسيمُ بأمرِ ربِّ العالمين
- ١١ هذى لعمرُ الله إحدَى معجزاتِ المرسلين
- ١٢ إذ قالَ فيمن حوله : كونوا لقولي مدركين
- ١٣ إنى أشمُ لريحِ يوسفَ فى الركابِ القادمين
- ١٤ لا تنكروا قولي ، وكونوا بالمقالة موقنين
- ١٥ لولا ملامتكم لقلتُ مؤكداً : هذا يقين
- ١٦ كانت إجابتهم كلاماً فيه عُنْفُ اللائمين
- ١٧ تالله إنك لا تزالُ على ضلالِ التائمين
- ١٨ هل لا تزالُ لذكرِ يوسفَ بعد عشراتِ السنين ؟!
- ١٩ قد صارَ يوسفُ دون شكٍّ فى عدادِ الغابرين
- ٢٠ فلتنسهُ كى تستريحَ ، وكن من المتجملدين
- ٢١ العيرُ قد وصلتْ حيثُ الأهلُ كونوا نازلين
- ٢٢ جاءَ القميصُ مع البشيرِ ، وفرحةً فى القادمين
- ٢٣ ألقى القميصُ عليه أصبحَ فى عدادِ المبصرين
- ٢٤ الشيخُ يشكرُ ربّه شكرَ الرجالِ العارفين

- ويوجهُ القولَ العنيفَ إلى بنيه السامعين ٢٥
 أَفَقَدْ رَأَيْتُمْ أَن قَوْلِي كُلَّهُ صَدَقٌ مُبِينٌ ؟! ٢٦
 فَلَكُمْ سَخِرْتُمْ مِن مَقَالِي ، لَمْ تَكُونُوا مُوقِنِينَ ٢٧
 أَفَلَمْ أَقُلْ : إِنِّي عَلَى عِلْمٍ ، وَلَسْتُمْ عَالِمِينَ ؟! ٢٨
 قَالُوا : صَدَقْتَ ، فَإِنَّا كُنَّا جَمِيعًا جَاهِلِينَ ٢٩
 مِن بَعْدِ أَن قَالُوا : صَدَقْتَ ، تَسَاءَلُوا مُتَوَسِّلِينَ ٣٠
 قَالُوا : فَإِنَّكَ يَا أَبَانَا ، فِي عِدَادِ الْمُرْسَلِينَ ٣١
 وَلَإِنِّي أَيْضًا مُسْتَجَابٌ فِي دَعَاءِ الضَّارِّعِينَ ٣٢
 فَاسْتَغْفِرِ الْمَوْلَى لَنَا ، فَلَقَدْ غَدَوْنَا نَادِمِينَ ٣٣
 اللَّهُ غَفَّارٌ يَحِبُّ النَّادِمِينَ النَّاتِبِينَ ٣٤
 الشَّيْخُ قَالَ لَهُمْ : عَفَوْتُ ، فَلَا تَكُونُوا خَائِفِينَ ٣٥
 وَلَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنَ إِلَهِي فِي دَجَى اللَّيْلِ السَّكِينِ ٣٦
 أَن يَغْفِرَ ذُنُوبَكُمْ كَيْ تَصْبَحُوا مُتَطَهِّرِينَ ٣٧
 وَلَقَدْ تَوَجَّهَ ضَارِعًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٨
 رَبَّاهُ فَاقْبَلْ دَعْوَتِي ، إِنِّي عَفَوْتُ عَنِ الْبَنِينَ ٣٩
 يَعْقُوبُ مَعَ أَوْلَادِهِ صَارُوا مَعًا مُتَأَلِّفِينَ ٤٠
 الْحُبُّ صَارَ يَسُودُهُمْ كَانُوا مَعًا مُتَبَاعِدِينَ ٤١
 قَالُوا : فَهَيَّا يَا أَبَانَا ، نَاتِ أَرْضَ الْخَالِدِينَ ٤٢
 هِيَ إِلَى مِصْرَ الْعَزِيزَةِ مَوْطِنِ الْمُتَحَضِّرِينَ ٤٣
 النَّيْلُ أَعْطَى أَهْلَهَا أَمْنًا ، فَعَاشُوا رَاغِدِينَ ٤٤
 فِيهَا حَبِيبُكَ يَوْسُفُ ، هُوَ خَازِنُ الْمَالِ الْآمِنِ ٤٥
 قَدْ قَالَ : هَاتُوا لِي أَبِي ، وَالْأَهْلَ كُلَّ مُسْرِعِينَ ٤٦
 يَعْقُوبُ مَعَ أَبْنَائِهِ قَدْ قَرَّرُوا مُتَكَامِلِينَ ٤٧
 أَن يَرْحَلُوا عَنْ أَرْضِهِمْ ، أَرْضِ الْجُدُودِ الْأَوَّلِينَ ٤٨
 تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ لِأَرْضِ النَّيْلِ صَارُوا ذَاهِبِينَ ٤٩
 وَصَلُوا هُنَالِكَ حَيْثُ كَانَ الْحُبُّ وَضَاءَ الْجَبِينِ ٥٠
 دَخَلُوا عَلَى الصَّدِيقِ قَدْ كَانُوا لَهُ مُتَشَوِّقِينَ ٥١

- أعطى إلى أبويه قُرباً ، ثم برّ المؤمنين ٥٢
 بل قال : مرحى ، فادخلوا مصرَ العزيزةَ آمين ٥٣
 لما اطمأنوا إذ بهم خروا جميعاً ساجدين ٥٤
 كان السجود تحيةً ، لا ، لم يكونوا عابدين ٥٥
 أو ربّما سجّدوا لربّ العرشِ سجدةَ شاكرين ٥٦
 العرشُ قد جلسوا عليه ، بأمرِ يوسفَ عن يقين ٥٧
 لما رآهم يوسفُ سجّدوا سجودَ الخاشعين ٥٨
 هتفتْ خواطرهُ ببعضِ الذكرياتِ السابقين ٥٩
 فتذكّرَ الرؤيا التى أودّته للكيّدِ المشين ٦٠
 من ثم قال مخاطباً لأبيه بالقولِ المبين ٦١
 هذى هى الرؤيا القديمةُ فسّرتُ للعالمين ٦٢
 رؤياى كانتْ يا أبى حقاً شبيهاً باليقين ٦٣
 قد تمّ ما قدّ شاءه المولى ، وكنا غافلين ٦٤
 اللهُ أكرمَنِى فأخرجَنِى من السّجنِ المهين ٦٥
 أيضاً وجاء بكم ، وكنتم فى البداوةِ ماكثين ٦٦
 قد كانَ للشيطانِ نزغٌ فى قلوبِ مظلّمين ٦٧
 بينى وبينَ بنى أبى ، قد كانَ نزغٌ للعين ٦٨
 حمداً إلهِ العرشِ إنك ناصرُ المستضعفين ٦٩
 أنتَ اللطيفُ لما تشاءُ وراحمُ المسترحمين ٧٠
 أعطيتنى ملكاً وفضلاً ، فوقَ حلمِ الحالمين ٧١
 أعطيتنى علماً لتفسيرِ الرؤى للنائمين ٧٢
 يا خالقاً لسمائنا ولأرضنا والعالمين ٧٣
 أنتَ الوليُّ وملجأى ، لا شكٌ فى ديناً ودين ٧٤
 يا ربّ خذنى مسلماً وتوفنى فى الصالحين ٧٥

أبناء يعقوب يعودون فرحين بقميص يوسف

١ هذا هُوَ الصَّدِيقُ يوصِي الإخوةَ المتسمِّعين
 ٢ أن يذهبوا بقميصه لأبيه ، كانوا طائعين
 ٣ سمعوا وصيته وعادوا بالقميص مسارعين
 ٤ وقلوبهم مملأى بفرح ، لم يعودوا خائبين
 ٥ يعقوب لا ينفك مع أحزانه ، لا يستكين
 ٦ لم ينسَ يوسفَ أو أخاهُ ، وإنه باكٍ حزين

أما يوسف الصديق ، فإنه أبدى لإخوته تسامحاً ووداً . . لقد عفا عنهم ، وهو في مركز القوة ، بحيث يستطيع أن يتكلم بهم - بإشارة منه لمعاونيه - رداً على صنيعهم المشين معه ، حينما كان صغيراً ضعيفاً وحيداً ، وقد كانوا أكبر منه سناً ، وأقوى . . ! ويؤكد تسامحه لهم ، أنه أعطاهم قميصه وقال لهم : اذهبوا إلى أبي ، الذي أضناه الشوق ، وهدته الأحزان ، وفقد نور عينيه حزناً على فراقى ، وفراق أخى بنيامين . القوا هذا القميص على وجه أبى ، يترد إليه بصره ، سوف يبصر كما كان من قبل . . !! وهنا لابد من جواب ، على سؤال يطرح نفسه ، من خلال الحوار الذى دار بين يوسف وبين إخوته . . هذا السؤال هو ! ما الذى أدرى يوسف ، بأن أباه صار أعمى لا يبصر ؟! آيات القرآن الكريم ، لم تذكر شيئاً عن هذا ، وأيضاً لم يدرُ بينه وبين إخوته حوار عن أبيهم ، وعن أحواله . . إذن فمن أين علم يوسف ، بأن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن عليه ؟! لا جواب من واقع الآيات القرآنية ، على هذا السؤال . . ولا يوجد دليل من سنة رسول الله ﷺ . ولا أخال يوسف أخذ علمه بفقد بصر أبيه ، إلا من جهة عليا . . إنها شفافية النبوة ، ولا شئ غير هذا . . !! أخذ أبناء يعقوب قميص يوسف ، وعادوا أدراجهم مسرعين ، نحو وطنهم . . يريدون أن يطيروا بغير أجنحة ، الفرحة تملأ قلوبهم . . لقد تبينوا الآن فقط أن أباهم كان على صواب ، حينما قال لهم : ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ . إنهم يستحثون الإبل ، لتسرع الخطى . . لأنهم يحملون معهم ما يدخل الفرحة والسرور على قلب أبيهم ، الذى أضناه الحزن والشوق على يوسف وأخيه . . ولا غرو فسرور أبيهم ، سرور لكل آل يعقوب . وبينما هم فى طريق عودتهم ، كان يعقوب ﷺ ، قابلاً فى خلوته مع أحزانه ، منطوياً على نفسه ، لا يتحدث إلى أحد . . ولا يتحدث إليه أحد .

رائحة القميص تصل يعقوب

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾

أبناءُ يعقوب تولّوا بالأمانى عائدين ٧
 وهناك يعقوبُ يعيشُ مع البكاءِ مع الأئين ٨
 ريحُ الحبيبِ تحيُّهُ من ألفِ ميلٍ كاملين ٩
 جاءته يحملها النسيمُ بأمرِ ربِّ العالمين ١٠
 هذى لعمرُ الله إحدى معجزاتِ المرسلين ١١

ما فى ذلك من شك أن يعقوب ﷺ، عاش السنين الطويلة الماضية مع الأحزان، حتى صارت سمة له عرف بها ، فلا تراه باسمًا مطلقًا ، وإذا ما تحدث ، فحديثه ممزوج بالمرارة والأسى ، تبدو على محياه ظلال من الكآبة . بينما هو فى أحزانه التى ألفها، فجأة شعر بنشاط يدب فى أوصاله، فهب قائمًا، خرج من معتكفه الذى كان قابعًا فيه مع أحزانه، خرج إلى صحن المنزل يستنشق الهواء .. كى يملأ صدره به ، وقد رآه كل من فى المنزل ، يتلفت يمتة ويسرة ، كأنه مبصر يبحث عن شىء ما . الواقع أن شيئًا ما ، جعل هذا الشيخ يخرج من معتكفه الذى كان قابعًا فيه منذ سنين طويلة مع أحزانه التى ألفها . نعم، لقد أحس الشيخ، بشىء خفى، أجرى فى عروقه وأوصاله نشاطًا ملحوظًا. . نعم، إنه شعر برائحة ملأت حاسة الشم لديه، رائحة زكية محببة، إنه يعرف هذه الرائحة، ويعرف مصدرها، بيد أنها انقطعت عنه منذ بعيد ، منذ أن غاب عنه يوسف. . بالله!! هل للإنسان رائحة تشم من البعد البعيد؟! لقد جاءته رائحة يوسف ، منبعثة من القميص الذى تحمله القافلة ، والقافلة كانت لا تزال تغذ السير ، متجهة إلى أرض كنعان ، بيد أنها لما تبرح حتى الآن حدود أرض مصر .. فكانت لمسافة أكثر من ألف ميل ، وكان القميص مخبوءًا على ظهور الإبل بين الأوعية ، فكيف خرجت رائحته فوصلت يعقوب ﷺ فى معتكفه؟! أمام هذا الأمر ، ينبغى أن نقف خاشعين .. فتلك لعمر الله قدرة الإله العظيم ، ولله عز وجل الطاف خفية ، لا تستند إلى القوانين التى نتعامل بها ، بل نستند إلى العظيم الذى يقول للشىء كن فيكون .. ولا غرو فيعقوب ﷺ، نبي مرسل، ويوسف نبي مرسل، وكلاهما على صلة وثيقة بوحى الإله الذى يأتى بأخبار الغيب. قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿ [الجن] .

يعقوب يعلن : إني لأجد ريح يوسف

﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴾ (٩٤)

إِذ قَالَ فِيمَنْ حَوْلَهُ : كُونُوا لِقَوْلِي مَدْرِكِينَ ١٢
 إِنِّي أَشْتُمُ لَرِيحِ يُوسُفَ فِي الرِّكَابِ الْقَادِمِينَ ١٣
 لَا تَنْكِرُوا قَوْلِي ، وَكُونُوا بِالْمُقَالَةِ مَوْقِنِينَ ١٤
 لَوْلَا مَلَامَتُكُمْ لَقُلْتُ مُؤَكَّدًا : هَذَا يَقِينٌ ١٥

لقد تأكد نبي الله يعقوب ﷺ ، أن الرائحة التي هبت عليه ، وملأت حاسة الشم لديه ، هي رائحة يوسف ولده ، ما في ذلك من شك . إن تأكده من ذلك ، كان من حدسه ، أو من الجهة العليا التي لا تنفك تمده بصادق المعلومات التي لا يتسرب الشك إليها . . لقد اطمأن إلى أن هذه هي رائحة يوسف ، فمن ثم هتف قائلاً : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ . كل من في البيت ، سمعوا ما قاله الشيخ ، أصيبوا بالدهشة ، تساءلوا فيما بينهم قائلين : ماذا يقول الشيخ ؟! شعر الشيخ أنهم يتهايمسون ، في غرابة وارتياب ، فكرر قوله للمرة الثانية ، ليتأكدوا مما سمعوه ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴾ (٩٤) أي لا تسخروا مني ، لا تنكروا مني هذا القول ، لا تظنوا بي الظنون ، فانا بكامل قواي العقلية ، لم أفقد صوابي ، إنكم تشكون في قولي هذا ، وسوف تفسرونه حسب تصوراتكم التي بنيتوها على حسابات خاطئة . . إلا أنني أؤكد لكم ، أن هذا الذي أقوله ، هو حق صواب .

قال الفخر الرازي : واختلفوا في كيفية وصول تلك الرائحة إليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفت القميص ، ففاحت روائح الجنة في الدنيا ، واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم ﷺ أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة ، إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « أما كيف وجد يعقوب ريح يوسف في هذا القميص ، على هذا المدى البعيد ، الذي أحد طرفيه مصر ، وطرفه الآخر كنعان ، فإن هذا السؤال يرد على أي قميص ، سواء أكان القميص الذي يقال إنه قميص إبراهيم ،

أم قميص آخر . والذي علينا ، هو أن نصدق يقيناً ، بأن يعقوب قد وجد ريح يوسف من مصر ، أما هذه الريح التي وجدها يعقوب ، فهي إما أن تكون ريحاً شمها فعلاً بأنفه على الحقيقة ، كما تُشم أرواح الأشياء ذات الريح ، وإما أن تكون هذه الريح مشاعر وخواطر مثلت له يوسف مقبلاً عليه أشبه بالطيف الزائر في المنام ، أو الخاطر المسعد في اليقظة ، وذلك كله من الطاف الله تعالى بيعقوب ، ومن إشراق نفسه الصافية ، وانطلاق الروح من قيود المادة والجسد « القصص القرآني .

قال صاحب كتاب: « تأملات في سورة يوسف » : وما معنى قول يعقوب : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ معناه أن يوسف حي يرزق ، بل معناه أن ريحه متجهة إليه ، بل إنها ليست بعيدة منه . وإذا كان كل ذلك يفهم من كلامه ضمناً ، فإن الجزئية التالية ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ (٩٤) قوة لما سبقها على ذلك الفهم إذ أنها تكاد تكون قولاً صريحاً ، بقرب لقائه بابنه الحبيب ، يوسف ، ولولا خوفه من نسبة آله له إلى ضعف الرأي ، لصرح بذلك . فإننى معنى هذه الجزئية ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ (٩٤) ﴿ لولا خوفى من نسبتكم الخرف لى ، لكان لى تعبير أكثر صراحة ووضوحاً ، ولقلت لكم ، قد حانت ساعة لقائى بابنى الحبيب يوسف ، بعد طول غياب ، والله أعلم .

يعقوب يتهم بالضلال والخطأ

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

كانت إجابتهم كلاماً فيه عنفُ اللاتيمين ١٦
 تالله إنك لا تزال على ضلال التائمين ١٧
 هل لا تزال لذكر يوسف، بعد عشرات السنين ١٨ ؟
 قد صار يوسف دون شك في عداد الغابرين ١٩
 فلتنسه كي تستريح ، وكن من المتجملدين ٢٠

لما أعلن يعقوب عليه السلام، فيمن حوله من أهل بيته، من النسوة والأولاد قائلاً: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ . لم يخف أهل بيته استنكارهم لهذا القول، الذي اعتبروه هذراً، وسفهاً من الرأي، بل أظهروا له ما كانوا يتهمسون به ، فيما بينهم عنه . كانوا يقولون عنه: إنه شيخ ضال، من شدة الأحزان ، فقد رشده ، فصار يهذى ، لا يدرى ما يقول . . وها هم الآن ، يؤكدون هذا المعنى فيقولون : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ . أى كفى أيها الشيخ عن ذكر يوسف ، لأن ذلك يسبب لك الضيق والآلام ، فانساه واترك الأمر ، وتذرع بالصبر ، لأن يوسف قد ذهب ، منذ عشرات السنين ، ألا يكون ذلك دليلاً على أنه هلك ، وأصبح في عداد الغابرين ؟!

قال القاضى بىضاوى فى تفسيره : « قالوا - أى الحاضرون - ﴿ تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ . أى لفى ذهابك عن الصواب قدماً ، بالإفراط فى محبة يوسف ، وإكثار ذكره ، والتوقع للقاءه » .

قال ابن كثير فى تفسيره: « وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم .

وقال قتادة: أى من حب يوسف: لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم: ولا لنبى الله ﷺ . وكذا قال السدى وغيره .

قلت : الذين قالوا ليعقوب : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ ليسوا أولاده ، وإنما هم نساء أولاده ، وأولادهم ممن هم فى البيت أيضاً . . ذلك لأن يعقوب قال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قبل وصول القافلة التى فيها أولاده ، ومعهم قميص يوسف الذى انبعث منه الرائحة . وأرى أن الذين نسبوا هذه الجملة « إنك لفى ضلالك القديم » لأبناء يعقوب ، بأنهم قالوها لأبيهم : قد جانبهم الصواب .

يعقوب يعود إليه بصره

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

الغيرُ قد وصلتُ حيثُ الأهلُ كونوا نازلين ٢١
جاءَ القميصُ مع البشيرِ ، وفرحةً في القادمين ٢٢
ألقى القميصُ عليه أصبحَ في عدادِ المبصرين ٢٣
الشيخُ يشكرُ ربَّه شكرَ الرجالِ العارفين ٢٤

لقد وصلت القافلة أرض كنعان في الشام ، إلى المكان الذي فيه مساكن آل يعقوب.. وقد كان أبناء يعقوب ، في الوقت نفسه مملوئين فرحة وسروراً ، لماذا؟! لأنهم يحملون معهم ما فيه سعادة لأبيهم ، ويدخل السرور على قلبه .. فهم لم يروه مبتسماً منذ أن غاب يوسف .. أما الآن فسوف يتسم .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، فإن حالهم سوف يتبدل من الشقاء إلى السعادة ، ومن شظف العيش إلى رغده ، ومن الأحزان إلى الأفراح . هذا كله سوف يكون بسبب لقائهم بيوسف ، إنه الضالة المنشودة .. لسوف تضحك لهم الحياة بعد عبوسها .

أحد أبناء يعقوب، تباطأ سير الإبل ، فأخذ القميص - عندما اقتربوا من قريتهم - وانطلق يسابق الريح ، عدواً على رجله ، بشيراً كي يبشر أباه ، كما هي العادة عند أهل البادية ، وأهل الخضر أيضاً : دخل البشير على أبيه في معتكفه القابع فيه .. والذي قضى فيه سنين أحزانه .. فألقى قميص يوسف على وجهه .. فوراً ارتد إليه بصره .. يا الله!! لقد تم هذا بسرعة ، كان أشبه بمصباح كهربائي غير مضاء ، فضغط بأصبعه على مفتاح الإضاءة، فأضاء .

فكان يعقوب عليه السلام ، لم يكن طوال المدة الماضية ، أعمى لا يبصر! بل كان مغمضاً عينيه فقط ، فلما ألقى القميص على وجهه، فتح عينيه، فأبصر .. من ثم فإننا لا نستطيع أن نفسر هذا بأفهامنا المادية القاصرة .. لأنه أمر يجري بقوانين غير القوانين التي نحتكم إليها نحن .. إنها علاقة بين نبيين كريمين .. قد يكون بينهما تراسل روحي ،

٣٣. يوسف الصديق ﷺ شعراً ونشراً

ولدى كل منهما علم من الله لدنئى . علم من الله ليوسف بأن قميصه سوف يعيد إلى أبيه بصره ، بمجرد إلقائه على وجهه ، وعلم من الله ليعقوب أوصل له ريح القميص ، من مسيرة ألف ميل !!

قال الفخر الرازى : قال جمهور المفسرين : البشير هو يهوذا ، قال : أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت : إن يوسف أكله الذئب ، فأذهب اليوم بالقميص ، فأفرحه كما أحزنته .

قوله تعالى : ﴿ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أى طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو يقال : ألقاه يعقوب على وجه نفسه قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ بِصِيرًا ﴾ أى رجع بصيراً ، ومعنى الارتداد ، انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها .

واختلفوا فيه فقال بعضهم : إنه كان قد عمى بالكلية ، فالله تعالى جعله بصيراً فى هذا الوقت .

وقال آخرون : بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان ، فلما ألقوا القميص على وجهه ، وبُشِّرَ بحياة يوسف ﷺ عظم فرحه ، وانشرح صدره ، وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه .

يعقوب يعنف بنيه

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦)

ويوجهُ القولَ العنيفَ إلى بنيه السامعين ٢٥
 أَفَقَدْ رَأَيْتُمْ أَن قَوْلِي كُلَّهُ صَدَقُ مُبِينٌ !؟ ٢٦
 فَلَكُمْ سَخِرْتُمْ مِن مَقَالِي ، لَمْ تَكُونُوا مُوقِنِينَ ٢٧
 أَفَلَمْ أَقُلْ : إِنِّي عَلَى عِلْمٍ ، وَلَسْتُمْ عَالِمِينَ !؟ ٢٨
 قَالُوا : صَدَقْتَ ، فَإِنَّا كُنَّا جَمِيعًا جَاهِلِينَ ٢٩

يعقوب ﷺ ، فتح عينيه وأبصر ، بعد عمى حقيقى .. لقد رأى أولاده ،
 والبشر يكسو محياهم ، والبسمة على شفاههم .. وكلمات تتردد على ألسنة الجميع ،
 حول هذا الحدث العظيم .. أخيراً لقد غشيت الفرحة هذا البيت ، بعد أن كان الغم
 والحزن يخيما عليه ، لسنين طويلة . بيد أن يعقوب ﷺ ، برغم الفرحة الغامرة التي
 ملأت قلبه ، وقلوب بنيه أيضاً ، لم ينس أن يذكر أبناءه بموقفهم منه .. وعدم
 تصديقهم كلامه فيوجه حديثه لهم ، معتقاً مؤنباً فيقول : هل ثبت لديكم الآن ، أنني
 كنت صادقاً في كل كلمة قلتها لكم ؟! هل أيقنتم أيضاً ، أنني على علم من الله لا
 تعلمونه أنتم ؟! لم يستطع أحد منهم أن ينس بينت شفة .. سلباً أو إيجاباً ، معترضاً
 أو مسلماً بكل ما يقوله أبيهم . أخيراً وجدوا أنفسهم صامتين ، بينما أبوهم يتساءل ،
 إذن فينبغى أن يجيبوا على تساؤلات أبيهم .. فمن ثم هتفوا جميعاً قائلين : صدقت يا
 أبانا ، فنحن قد كنا أقل وأجهل من أن نتناول بإدراكنا وأفهامنا ، إلى مقام إدراكك
 وعلمك ومعرفتك .

قال ابن كثير فى تفسيره : وقال لبيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) أى : أعلم أن الله سيرده إلى .

قال القاضى بىضاوى فى تفسيره : « ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) من حياة يوسف ﷺ وإنزال الفرج » .

وقال الفخر الرازي : والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا ، لأن هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم ، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦) .

قلت : ما قاله الفخر الرازي فى هذا المعنى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، وأميل إليه ، ذلك لأن الرؤيا التى رآها يوسف الصديق فى صغره ، رؤيا صادقة وحق ، ومن ثم فلا بد من تأويلها يوماً ما ، بيد أن تأويلها لما يأت بعد . من هذا المنطلق ، كان يعقوب متأكداً من حياة يوسف ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن يعقوب ﷺ نبي مرسل ، وله مع خالقه العظيم صلة قوية ، فليس بمستبعد أن يكون الله عز وجل أخبره بأن يوسف لم يمت ، وهو لما يزل حياً .

أبناء يعقوب يستعطفون أباهم

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٩٧)

من بعد أن قالوا : صدقت ، تساءلوا متوسلين ٣٠
قالوا : فإنك يا أبانا ، في عداد المرسلين ٣١
ولأنت أيضاً مستجابٌ في دعاء الضَّارِّعين ٣٢
فاستغفر المولى لنا ، فلقد غدونا نادمين ٣٣
الله غفارٌ يحبُّ النادمين التائبين ٣٤

أبناء يعقوب الآن في حالة سعادة غامرة ، فقد انقلب البيت كله من حال إلى حال ، من الكآبة والحزن ، إلى الابتسامة والفرح . إنهم فرحون ، والفرحة تغمرهم ، وتملأ قلوبهم ، وذلك بما طرأ عليهم من واقع الحدث الجديد .. هذا الحدث ، سوف تتغير في ظله حياتهم ، من البؤس والشقاء إلى الأمل ، إلى الاطمئنان ، إلى رغد العيش ، إلى السعادة والراحة . بيد أنهم في غمرة هذا الفرحة ، لم ينسوا ما فعلوه في حق يوسف أخيه ، وبالتالي كذبهم على أبيهم ، بأن الذئب قد أكله . إن شبح هذه الجريمة ، يبرز في خاطر كل منهم ، فينغص عليه فرحته ، فماذا يصنعون ؟! لقد نادوا ، ثم انتحوا جانباً ، ليقول كل منهم للآخرين : ما يحس به ، فإذا هم جميعاً في أحاسيسهم سواء .. فاتفقوا على شيء واحد ، هو : أن يسألوا أباهم ، ويتوسلون إليه ، أن يستغفر لهم ذنوبهم ، ويتضرع إلى ربه أن يغفر لهم فقالوا لأبيهم في ضعف واستعطاف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٩٧) . يا أبانا ! إننا نقر ونعترف بين يديك ، بأننا قد أخطأنا في حقك بالكذب عليك ، وأجرمنا في حق أخينا يوسف ، بإلقائه في الحب .. لا عذر لنا في هذا ، فاغفر لنا ، واعف عنا ، لقد كنا ضحية كيد الشيطان .. لقد لعب برؤوسنا ، فزين لنا ما فعلناه . لذلك ، فإننا نسألك يا أبانا ، بما أودع الله في قلبك من حنو وحنان ، وتقوى وإيمان ، أن تلجأ إلى مولاك ضارعاً ، وتستغفر لنا ، عساه أن يقبل توبتنا ، وندمنا ، فأنت نبي ، ومستجاب الدعاء والله عز وجل غفور رحيم ، يغفر للمستغفرين ، ويقبل التائبين ويحبهم .

قال القاضي بياضوى في تفسيره : «ومن حق المعترف بذنبه ، أن يصفح عنه ، ويُسأل له المغفرة » .

يعقوبُ يستغفرُ لبنيه

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٩٨)

الشيخُ قالَ لهم : عفوتُ ، فلا تكونوا خائفين ٣٥
ولسوفَ أطلبُ منَ إلهي في دجَى الليلِ السَّكينَ ٣٦
أنْ يغفرَ ذُنُوبَكُمْ كيَ تصبحُوا متطهرين ٣٧
ولقدُ توجهَ ضارعاً لله ربَّ العالمين ٣٨
رباهُ فأقبلَ دعوتي ، إني عفوتُ عن البنين ٣٩

لقد أحسن نبي الله يعقوب ﷺ بما يعانيه بنوه من الذلة والإنكسار، إن الحزى والندم يخيمان عليهم، حتى وجوههم، لتبدو كثيبة من هول ما يجول في أعماقهم، من شعور بالإحباط والضالة في هذا الموقف . فقال لهم أبوهم مواسياً مطمئناً : اطمأنوا ، لقد عفوت عنكم، فلا تخافوا . أنتم أبنائي، ويسوؤني ما يسوؤكم . ويسرنى ما يسركم . . فأبشروا وابتهجوا ، ولا تجعلوا شبح الماضي ، يعكر صفو هذا اليوم ، الميمون المبارك .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٩٨) . سوف أطلب من المولى عز وجل ، أن يغفر لكم ذنوبكم ، ويظهركم من خطاياكم، وذلك حينما يذهب ثلثا الليل ، لأن ذلك هو وقت الاستجابة . وفعلاً لقد انتظر يعقوب ﷺ ، ذهاب معظم الليل ، فوقف بين يدي ربه ضارعاً داعياً، سائلاً مولاه أن يغفر لبنيه ، وأن يتجاوز عنهم ، ويختتم دعاءه قائلاً : رباه ! إني عفوت عن أبنائي ، غفرت لهم ، فاعف عنهم واغفر لهم . . إنك أنت الغفور الرحيم .

قال ابن كثير في تفسيره : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٩٨) أي : من تاب إليه ، تاب عليه .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي ، وعمرو بن قيس ، وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر .

وعن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه ، قال ابن كثير في هذا الحديث : وفي رفعه نظر ، والله أعلم . . عن تفسير الطبرى .

أبناء يعقوب يعرضون على أبيهم الذهاب إلى مصر

يعقوبُ مع أولاده صاروا معاً متآلفين ٤٠
 الحب صار يسودهم كانوا معاً متباعدين ٤١
 قالوا : فهياً يا أبانا ، نأتِ أرضَ الخالدين ٤٢
 هيا إلى مصرَ العزيزة موطنَ المتحضرين ٤٣
 النيلُ أعطى أهلها أمناً ، فعاشوا راغدين ٤٤
 فيها حبيك يوسف ، هو خازنُ المالِ الأمين ٤٥
 قد قال : هاتوا لى أبى ، والأهلَ كلاً مسرعين ٤٦

الحب والود ، والألفة والسرور والتفاهم .. كل هذه الصفات هبطت على بيت آل يعقوب عليه السلام .. وذلك بعد كراهة متبادلة بين الشيخ وأولاده .. بسبب ضياع يوسف من قبل .. كان أسلوب التفاهم محدوداً ، بين الشيخ وأولاده .. فهو لم يبرئ أولاده من عمل شئ غير طبعي ، ضد يوسف .. وهم أيضاً يشعرون بأن أباهم غير راض عنهم كل الرضاء . أما الآن - وقد تبين أن يوسف لا يزال حياً - فقد ذهبت الأحزان ، من قلب الشيخ ، وأيضاً ذهبت معها الكراهة من قلب الشيخ .. فقد كانوا فى ظل الكراهة متباعدين ، وحل محلها الحب والسرور والتفاهم ، فصاروا إذن متآلفين متقاربين .

أما يعقوب عليه السلام فقد بدا عليه نشاط غير عادى ، وصار وجهه مشرقاً بالابتسام ، بعد أن كان دائم العبوس ، ولم لا ! فلقد صدق حدسه أخيراً ، وتبين أن حبيبه الغالى يوسف ، لا يزال على قيد الحياة ، بل هو مع بقائه حياً ، يتمتع بالجاه والسلطان . وقد اغتنم أبناؤه فرصة ابتهاجه ، فقالوا : يا أبانا .. ! إنا سنعرض عليك أمراً .. ! فترجوا أن نجد لديك القبول والموافقة عليه .. ! قال الشيخ : ما هو ؟! قالوا : أن نترك هذه الأرض ، ونرحل إلى مصر ، إلى حيث الخير والعز .. فلتترك هذه الأرض الصحراء الجرداء ، ونذهب إلى مصر .. أرض النيل الخالد ، أرض الحضارة والسيادة .. النيل أعطى الأمان لأهل مصر ، فهم فى رغد من العيش ، لا يخافون الجوع . ولا غرو فتلك هى رغبة حبيك يوسف .. وهو كما علمت ، خازن المال الأمين ، فى مصر كلها .. هو الذى قال : هاتوا أبى وهاتوا كل آل يعقوب ، فلا يبقى أحد من آل يعقوب فى الصحراء القاحلة هنالك .

قافلة آل يعقوب فى طريقها إلى مصر

يعقوبُ مع أبنائه قد قرروا متكاملين ٤٧
أن يرحلوا عن أرضهم ، أرض الجدود الأولين ٤٨
تركوا منازلهم لأرض النيل صاروا ذاهبين ٤٩
وصلوا هنالك حيث كان الحب وضاء الجبين ٥٠

لقد استمع يعقوب ﷺ حديث أولاده ، حيث عرضوا عليه أمر الرحيل إلى مصر . . وأن يتركوا تلك البلاد التى ضنت عليهم ، بأدنى مطالب الحياة : هو الطعام .

بيد أن يعقوب ، لم يستقبل هذا الأمر بإعجاب وتحمس . . بل استقبله بفتور . . ذلك لأنه أمر لم يفكر فيه من قبل . . لم يناقشه مع نفسه يوماً ما . . لم يدرْ بخلده يوماً ما ، أن يهاجر من موطنه . . موطن الآباء والأجداد . . مسقط الرأس . . مدرج الطفولة ومربع الصبا . . وفيه ما فيه من ذكريات عزيزة . . إنه قرار يحتاج إلى روية وأناة . لمح أبناء يعقوب ، ما يدور فى أعماق أبيهم ، بعد ما طرحوا عليه أمر الرحيل من أرض كنعان إلى مصر . . فأخذوا يناقشونه بهدوء ، ودار حوار بينه وبينهم ، انتهى بإقناع الشيخ بفكرة الرحيل إلى أرض مصر .

لقد اقتنع الشيخ أخيراً ، بالرحيل من أرض كنعان . . أرض الآباء والأجداد ، وفعلاً ، لقد تحركت القافلة صوب مصر ، يحدوها حنين جارف فى قلوب الجميع ، لا سيما قلب يعقوب ، الذى يريد أن يطير بغير أجنحة ، مسارعاً لرؤية ولده الحبيب ، يوسف ، الذى هدته الأحزان ، بسبب غيابه . . وقد ظل ملء خياله ووجدانه ، طيلة مدة غيابه قبل هـى : أربعون سنة . ويا للعجب !! فيعقوب ﷺ لم يشك خلال تلك السنين الطويلة ، فى أن ولده يوسف ، لا يزال حياً . وبعد مسيرة طويلة وشاقة ، قطعتها القافلة ، متجهة من الشام إلى مصر ، وصلوا إلى مشارف مصر . . مصر التى تحوى بين أحضانها الأعبة . . لاسيما يوسف الذى يتلأل النور من جبينه ، ومن منطقته أيضاً .

يوسف يستقبل أبويه وإخوته

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ (٩٩)

دخلوا على الصديق قد كانوا له متشوقين ٥١

أعطى إلى أبويه قرباً ، سم بر المؤمنين ٥٢

بل قال : مرحى ، نادخلوا مصر العزيزة آمين ٥٣

لقد واصلت القافلة مسيرتها، فى قرى مصر وضواحيها ، حتى وصلوا المكان الذى يضم يوسف الصديق، هو مقر الدولة وكل الدوائر الحكومية . كان يوسف قد أعد لأبيه وإخوته استقبالا ، يليق بمكانته هو ، لكونه ذا مكانة مرموقة فى الدولة . . إنه خازن المال الامين . . وتلك كانت أعظم وأرفع منزلة يتبوأها إنسان فى مصر . وفعلا لقد تم استقبال أبويه وإخوته، وتم الاحتفاء بهم ، وتكريمهم على أعلى مستوى رسمى وشعبى . وقد كان يوسف عليه السلام، بين المستقبلين ، وعلى الأصح على رأس المستقبلين ، فى موكب المهيب ، تحفه الخدم والجند ، عليه مهابة السلوك ، وعظمة السلطان . . فلما رأى أبويه وإخوته مقبلين ، ترجل ، وسعى نحوهم على قدميه ، مبالغة فى تحيتهم ، وإظهاراً لتعظيمهم فى أعين المستقبلين لهم . تعانقوا وتصافحوا ، ولا غرو فالشوق يتأجج فى جوانح كل منهم . . وقد كان المستقبلون يحيونهم ، ويلوحون بالأيدى . احتضن يوسف أبويه وقال لهم : مرحباً بكم فى مصر ، ادخلوها بأمن وأمان ، أنتم الآن بين شعب مصر العريق المضيف . . ولسوف تجدون فى مصر أهلاً ، وتنزلون منزلاً سهلاً . قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « فلما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين » أى أنهم حين دخلوا على يوسف ، فى مجلس حكمه وسلطانه ، أخذ بيد أبويه ، وضمهما إليه ، ومن ورائهما إخوته ، وحياهما تحية السلام والإكرام » (١) .

قال ابن كثير فى تفسيره : « يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدمه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوا بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقئهم ، وأمر الملك أمراءه ، وأكابر الناس ، بالخروج مع يوسف ، لتلقى نبي الله يعقوب عليه السلام » .

يعقوب وأولاده يسجدون ليوسف تعظيماً

﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

لما اطمأنوا إذ بهم خروا جميعاً ساجدين ٥٤
 كان السجود تحيةً ، لا ، لم يكونوا عابدين ٥٥
 أو ربّما سجدوا لربّ العرش سجدةً شاكرين ٥٦
 العرشُ قد جلسوا عليه ، بأمر يوسف عن يقين ٥٧

وصل موكب المحتفى بهم - يعقوب ﷺ وأبناؤه - إلى قصر الملك الذى يضم كبار رجال الدولة . . وهنالك حينما وجدوا أنفسهم ، وسط قصر عظيم ، فيه الأرائك مصفوفة ، والفرش وأنواع الطنافس الثمينة ، تغطى أرض القصر ، وتلك لعمر الله هى أروع مظاهر الأبهة ، والجاء والسلطان ، أدركوا أن يوسف ﷺ يعيش فى هذا القصر ، وقد تهأت له كل أسباب الحياة ، من حيث الرفاهية والترف . . حينئذ لم يتمالكوا أنفسهم . . فخروا ساجدين جميعهم . نعم ، لقد سجدوا جميعاً . . هكذا أخبر القرآن الكريم . . فمن أى أنواع السجود كان سجودهم؟! أهو سجود عبادة؟! وهذا بعيد جداً . . أم هو سجود تشريف وتحية؟! وهذا هو الأرجح ، قيل : كان هذا معمولاً به عندهم . . كانوا يحيون العظماء هكذا بالسجود . ثم أجلس يوسف ﷺ أبويه على سرير الملك ، زيادة فى إكرامهم ، وإشعارهم بمكانتهم لديه .

قال ابن كثير فى تفسيره : « ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعنى السرير، أى أجلسهما معه على سرير . ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير ، سجدوا له . . ولم يزل هذا جائزاً ، من لدن آدم إلى شريعة عيسى ﷺ . . فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى . »

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ تحية وتكرمة له ، فإن السجود كان عندهم ، يجرى مجراها ، وقيل معناه : خروا لأجله سجدًا لله شكرًا . » ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أجلسهما معه على العرش - السرير - أى أبواه وإخوته ، سجدوا له سجود انحناء ، لا وضع جبهة ، وكان تحيتهم فى ذلك الزمان » (١) .

(١) تفسير الجلالين .

رؤيا يوسف القديمة تتحقق

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

لما رآهم يوسف سجّدوا سجودَ الخاشعين ٥٨
هتفت خواطره ببعض الذكريات السابّقين ٥٩
فتذكّر الرؤيا التي أودّته للكيد المشين ٦٠
من ثم قال مخاطبًا لأبيه بالقول المبين ٦١
هذي هي الرؤيا القديمة فُسرّت للعالمين ٦٢
رؤياي كانت يا أبى حقًا شبيهًا باليقين ٦٣

أما يوسف الصديق ، فقد امتلأ سعادة وسرورًا ، وهو يرى أبويه وإخوته وهم يسجدون له .. ولا غرو فتلك كانت هي التحية التي يؤديها سواد الشعب ، للعظماء من الحكام والملوك . إن هذا السجود أشبه بسجود العبادة ، لا فرق بينهما .. فهذا سجود وذاك سجود ، وإنما الفرق في النية فحسب . وتهيج الخواطر والذكريات ، في رأس يوسف الصديق عليه السلام ، تأثرًا بهذا الموقف ، وتقفز أحداث الماضي في ذاكرته ، فتتمثل كأنها قد حدثت الآن .. أو من الممكن أن تقول : حيثذ عاد بذاكرته إلى الوراء ، يجتر أحداث الماضي القديم .. فتذكر رؤياه التي كان رآها وهو صبي صغير ، وقصها على أبيه ، والتي كانت سببًا في حقد إخوته عليه ، فمن ثم كادوا له .

فهتف يوسف قائلاً لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى أرأيت يا أبتي ! هذا هو تأويل رؤياي التي كنت رأيتها ، وأنا صبي صغير ، وكان بسببها ما كان ! إذن فقد كانت رؤيا صدق وحق .. وها هي ذى قد تحققت .

قال صاحب القصص القرآني : «وإذ يشهد يوسف هذا المنظر ، يذكر رؤياه التي رآها عندما كان صبيًا ، والتي قصها على أبيه في قوله : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٤) ثم ذكر ما قاله له أبوه إذ ذاك : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ وها هو ذا يوسف يرى تأويل رؤياه واقعًا محسوسًا بعد أن رآها في تأويل أبيه لها ، وعدًا بخير عظيم ، ودرجة عالية عند الله تعالى ، إذ يرى يوسف هذا كله يقول لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى أن هذه الرؤيا التي رآها يوسف في صباه ، قد تحققت اليوم ، إذ قد جعلها الله تعالى رؤيا صادقة ، لأن في الرؤى ما يصدق وما يكذب ، ورؤى الأنبياء لا تكون إلا صدقًا ، ويوسف وإن لم يكن نبيًا حين رأى تلك الرؤيا ، فإنه مرشح للنبوّة ، لابس إهابها منذ ولد . »

يوسف يعترف بفضل الله عليه

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ .

قد تمَّ ما قدَّ شاءَ المولَى ، وكُنَّا غافِلِينَ ٦٤
اللهُ أَكْرَمَنِي فَأَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ الْمُهِينِ ٦٥
أَيْضاً وَجَاءَ بِكُمْ ، وَكُنْتُمْ فِي الْبَدَاوَةِ مَآكِثِينَ ٦٦
قد كَانَ لِلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فِي قُلُوبِ مَظْلَمِينَ ٦٧
بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ، قد كَانَ نَزْغٌ لِلْعَيْنِ ٦٨

يستطرد يوسف الصديق ﷺ في حديثه لأبيه فيقول : هكذا قد تم ما أراد الله عز وجل . . وما قدَّر يكون . . ولا يقع في كون الله إلا ما أراد الله . . أما ما لم يقع ، فذلك شيء مخبوء في ضمير الغيب ، لا ندره . ولا غرو فهذه المحنة كانت ابتلاء لنا جميعاً . . فمنا من خرج من هذا الابتلاء ، كالذهب الإبريز ، لم تزد المحنة إلا إيماناً بربه ، وبفضائه وقدره ، ومنا من كان دون ذلك ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ . وقد أكرمني ربي ، فأخرجني من السجن عزيزاً مكرماً . . ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ . ثم أراد الله عز وجل ، فساقتكم الأقدار ، فجئتم من البادية للإقامة في مصر ، وتلك لعمر الله نعمة من الله ، تستوجب الشكر . . لأن الإقامة في المدينة ، خير منها في البادية ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من بدا جفا » لقد جئتم وافدين إلى مصر كغيركم أول الأمر ، تطلبون الميرة ، حيث عم القحط كل بلاد الشرق ، خلا مصر . . مصر الغنية بنيلها الخالد ، يعدها بأسباب الحياة ، إنه شريان الحياة في مصر . وقد كان الشيطان لعنه الله ، لعب دوراً هاماً ، فافسد بيني وبين إخوتي ، وقد نجح في ذلك عليه اللعنة .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : في « القصص القرآني » وفي قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ إشارة إلى التحول من البدو إلى الحضر ، يعد من النعم التي تستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ، وذلك لما في حياة البدو من جفاء وغلظة وجاهلية ، على خلاف حياة الحضر وما فيها من نعم كثيرة ، وخير عظيم ، لمن يرمى حق هذه النعم ، ويؤدى شكر هذا الخير .

يوسف يشكر مولاه

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي

مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .

حمداً إله العرش إنك ناصرُ المستضعفين ٦٩
أنتَ اللطيفُ لما تشاءُ وراحمُ المسترحمين ٧٠
أعطيتني ملكاً وفضلاً ، فوقَ حلمِ الحالمين ٧١
أعطيتني علماً لتفسيرِ الرؤى للنائمين ٧٢

لا زال يوسف الصديق ، يتحدث إلى أبيه ، حديثاً فيه إيمان ، وفيه تقوى ، وفيه عبر وعظات . . لقد صقلته الأحداث ، وصهرته المصائب والابتلاءات ، فصار لا ينطق إلا بالحكمة . . ولا غرو فهو قد أصبح نبياً ، والأنبياء لا ينطقون إلا بما فيه معنى وحكمة . فحديثهم إما أن يكون أمراً بخير ، أو نهياً عن شر ، أو دعوى إلى الإيمان بالله وتوحيده وتعظيمه فيقول يوسف : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٠٠) نعم ، إن الله عز وجل ذو لطف ورحمة . . وإذا ما أراد أمراً ، فإنه يهيئ له الأسباب ، ويقدر الأقدار ، ويسير السبل لتنفيذه . . إنه العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وقضائه وقدره . ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ . إن يوسف ﷺ يشكر ربه على ما أسبغ عليه من كريم نعمه ، فلقد تولى أرفع مكانة في ملك مصر . . إنه يعترف بفضل ربه عليه ، إذ علمه تأويل الأحلام ، وربما يكون قصده ، النبوة .

قال القاضي بياض في تفسيره : « ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ لطيف التدبير له ، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ، ويتسهل دونها ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بوجوه المصالح والتدبير ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته ، وعلى وجه يقتضيه الحكمة . روى أن يوسف ﷺ طاف بأبيه في خزائنه ، فلما أدخله خزانة القراطيس ، قال : يا بني ! ما أعقل ؟! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي ، على ثمانى مراحل ؟! قال أمرني جبريل ، قال : أو ما تسأله ؟! قال : أنت أبسط مني إليه ، فسأله ، قال جبريل : الله أمرني بذلك ، لقولك : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ قال : فهلا خفتني ؟! ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ بعض الملك ، وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الكتب والرؤيا ، ومن أيضاً للتبعض ؛ لأنه لم يؤت كل التأويل . .

يوسف يتضرع إلى مولاه

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)

يا خالقاً لسمائنا ولأرضينا والعالمين ٧٣
أنت الولي وملجأى ، لا شك فى دنيا ودين ٧٤
يا رب خذنى مسلماً وتوفنى فى الصالحين ٧٥

﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١٠١) أى يا خالق السماوات والأرض ، ومبدعهما فى أحسن وأجمل صورة ، وخالق ما بينهما من عوالم ، بحيث لا يغيب عن علمك شيء من أحوالهم ﴿ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أنت ربى وخالقى ، وإليك أمرى فى كل أحوالى ، أنت حولى وقوتى ، لا ملجأ لى إلا أنت ، فى هذه الدنيا المملوءة بالعاجيب . . وفى الآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١) . أى أسألك يا مولاي ، أن تمنيى على الإسلام . . إنه الدين القيم الذى ارتضيته لعبادك ، وأرسلت به رسلك . واجعلنى يا رب فى عداد عبادك الصالحين ، الذين سوف يفوزون بالتكريم يوم القيامة ، ويجوزون على الصراط وهم آمنون ، ويقفون فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : « وبهذه الابتهالات والضراعات ، وبذلك التسابيح والصلوات ، يستقبل يوسف هذه النعم التى أنعم الله بها عليه . . فإنه بعد أن سوى حسابه مع أبيه وإخوته ، وبعد أن وضع الأمور فى نصابها بينهم وبينه ، وأعطى كل ذى حق حقه ، خلص إلى مناجاة ربه ، وإلى رفع آيات الحمد والشكران له » .

قال ابن كثير فى تفسيره : « هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا ، أن يستمر بها عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه . . قاله الضحاك . . وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين » .

ختم قصة يوسف

تلكم حكاية يوسف الصديق في الذكر الحكيم ٧٦
هي قصة عصماء جاءت كي تجيب السائلين ٧٧
فيها عظات ، فاقروها تستفيدوا عن يقين ٧٨

هذه قصة يوسف الصديق ﷺ .. صفتها شعراً من واقع الآيات القرآنية ، التي انتظمت أحداث القصة .. ثم ترجمت هذا الشعر ، إلى نثر ، بأسلوب بعيد عن التكلف ، مستعيناً بأراء المفسرين ، وكبار رجال الفكر من غير المفسرين . ولا غرو فهي قصة فريدة ، لم يرد ذكرها في القرآن الكريم ، إلا في تلك السورة التي سميت باسم صاحب القصة وبطلها .. يوسف . وسبب عدم ذكرها في أكثر من سورة كما هو الشأن في قصص الأنبياء .. كقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ! هي أنها جاءت إجابة على تساؤلات كانت مطروحة، وتتردد على كثير من الألسنة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ (٧)﴾ . إنها بلا شك قصة عجيبة، فيها من العبر والعظات ما لو تدبرها الناس، لكانوا إلى السعادة أقرب منهم إلى الشقاء، ولأخذت بأيديهم إلى رحاب الإيمان، لأن الله عز وجل، حينما يتلى عباده، فإنه يكون قد هياهم لما فيه خيرهم ومصلحتهم. ولنقتطف من كلام الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، بعض السطور ، المشرقة بالمعاني الفياضة إذ يقول : « فمن كان يقع في تقديره أن تلك الأحداث التي وقعت ليوسف: من إلقائه في الحب، إلى وقوعه في يد جماعة من التجار، إلى بيعه لرجل من مصر، إلى كيد امرأة العزيز له، إلى تأمرها مع جماعة النسوة عليه ، إلى إلقائه في السجن بضع سنين، من كان يقع في تقديره، أن هذه الأحداث، ينسج من خيوطها عرش، ويصاغ من حصاها تاج، ويولد من تصارعها ملك يجلس على هذا العرش العظيم، ويتوج بهذا التاج الكريم؟! إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خبير، يمسك الأسباب بلطفه، ويجريها بحكمته، فإذا هي طوع مشيئته، ورهن إرادته، فيجعل من المكروه - في تقديرنا - محبوباً، ومن المحبوب مكروهاً ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١٦] .

تم الانتهاء من مراجعة هذا الكتاب، لتقديمه للمطبعة، مساء الخميس السادس من شهر ذي الحجة ١٤١٣هـ الموافق السابع والعشرين من شهر مايو ١٩٩٣ فإن كنت قد أحسنت، فبتوفيق من الله عز وجل ، وإن كنت قد أخطأت في شيء من آراء أو أقوال في هذا الكتاب، فذلك سني، ولما يخلق بعد الذي لا يخطئ .. ورحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى .

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود] .

ثبث المراجع

- ١ - تفسير الإمام ابن كثير .
- ٢ - تفسير الإمام القرطبي .
- ٣ - تفسير القاضى البيضاوى .
- ٤ - تفسير الجلالين .
- ٥ - تفسير المنار .
- ٦ - تفسير الكشف .
- ٧ - تفسير صفوة التفاسير .
- ٨ - تفسير مفاتيح الغيب .
- ٩ - كتاب : قصص الأنبياء لابن كثير .
- ١٠ - كتاب : قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار .
- ١١ - كتاب أنبياء الله أحمد بهجت .
- ١٢ - كتاب القصص القرآنى عبد الرحمن الخطيب .
- ١٣ - كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى .
- ١٤ - السيرة النبوية ابن هشام .
- ١٥ - السيرة النبوية ابن كثير .
- ١٦ - سبل الهدى والرشاد للصالحى .
- ١٧ - تغريدة السيرة النبوية للمؤلف .
- ١٨ - تاريخ الرسل والملوك الطبرى .
- ١٩ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى .
- ٢٠ - صحيح مسلم بشرح النووى .
- ٢١ - إغائة اللهفان ابن قيم الجوزية .
- ٢٢ - تأملات فى سورة يوسف ، الدكتور باجوده .